المونسنيور يوحنا رزق

١٨٧٠ — ١٩٤٥

بقلم جرجي ابرهيم نصر

درجت الأمم وتبارت الشعوب المتمدّنة على تكريم أدبائها وعظمائها ونوابغها بُنَاة الحضارة الأدبية باقامة الحفلات والإشادة بهم في الكتب والصحف احياءً لذكراهم ، وتشجيعاً للناشئين للنسج على منوالهم وترسّم خُطاهم .

في الأمس القريب طوى الموت في لبنان صفحةً نيّرةً من صفحات أعلام الفكر والأدب ، وغيّب صورةً لبنانيةً جميلةً تألّق نورها في اوائل عصر النهضة الفكرية ، ولم يكُ هذا النبراس المضيء محظوظاً في حياته ولا في مماته ، فلم ينبر قلم لرثائه ، ولا فطن مؤرّخ الى تخليد أعماله وآثاره على ما كان به من وطنية متّقدة وغيرة على النهوض بلبنان الحديث وتهيئة السبل لسعادته ورفاهه ، فرأيت أن أزيح ستول النسيان عن تلك الشخصية الكريمة ، عملاً بواجب مفروض على المواطنين الباقين حيال رجالاتهم الغابرين ، عنيت بهذه الصورة الجميلة رجل الله البار المتضال .

المونسنيور يوحنا رزق

كان رحمه الله كاهنا فاضلاً وأديباً كبيراً وخطيباً مفوّهاً ، جمع بين سعة الاطلاع ، وفلسفة الحياة ، وعمق التفكير ، وبين بلاغة القول وحسن الأداء .

كان قبل سيامته كاهناً يُطلق عليه اسم صالح — وكان أبوه المعلم يوسف صالح رزق (١٨٣١—١٩١٦) ووالدته ملكة مبارك رزق (١٨٤٠—١٩٢٠) . — أبصر النور في جزين في ٣ شباط سنة ١٨٧٠ واقتبل سرّ العماد المقدس من يد نسيبه الخوري مخايل رزق ، ثم تلقّى علومه الابتدائية في مدرسة ماري يوسف جزين التي هي وقف على أسرته ، على يد الخوري يوسف الطنب ، فظهرت عليه سمات النباهة والذكاء ، وكان من المجلّين بين أقرانه.

وفي سنة ١٨٩٠ دخل مدرسة مار عبدا هرهريّا على زمن الخوري يوسف آصاف ، وسيم كاهناً من يد المطران بولس مسعد ١٨٩٢ .

ثم عاد الى جزين فدرس اللاهوت على المخوري يوسف الطنب ؛ ثم علّم الصرف والنحو والبيان في مدرستي قرنة شهوان وماري يوسف جزين.

وفي سنة ١٨٩٨ أوفده المطران بطرس البستاني مرسلاً ماروناياً الى المكسيك ليتفقّد فيها شؤون الرعيّة . فشخص الى تلك البلاد في أوائل هجرة اللبنانيين. فوقف على أحوالهم وشدّد عزائمهم ؛ وعمل على جمع كلمتهم ؛ ثم انصرف الى درس اللغة الاسبانية فبرع فيها وأجاد حتى أصبح ببرهة وجيزة يخطب فيها كأحد أبنائها المجيدين.

وفي سنة ١٩٠٠ منحه المجمع المقدس لنشر الإيمان ، لقب مرسل رسولي ؛ وسنة ١٩٠٣ نال لقب مونسنيور مع رتبة حبر روماني.

وفي سنة ١٩٠٥ اختاره أسقف « شيواوا » في المكسيك المطران « نيقولا بكافيلاس » نائباً عاماً في أبرشيته اللاتينية ؛ فخدمها سبع سنوات ، وتعمّق في اللغة اللاتينية . ومن غيرته الرسولية تأسيسه ميتماً لأبناء العمّال . ومطبعة كاثوليكية كانت تنشر المطبوعات الدينية.

وفي سنة ١٩١٠ نشبت ثورة في المكسيك كان هدفها ، نزع الحكم من يد الحاكم « بورفيرو دياز » فأنشأ المونسنيور رزق جريدة باللغة الاسبانية دعاها « مكسيكو » ضمّنها مقالات نفيسة ، تحدث فيها عن أضرار الثورات في البلاد بأسلوب رفيع اتّسم بالحكمة. والحصافة وبُعد النظر ، وتناول فيها حضارة العرب وأمجادهم المطويّة ؛ ولمّا نجحت الثورة اضطرّ الى مغادرة البلاد ، فسافر الى فرنسا وبقي في باريس ستة أشهر ومنها أبحر الى ايطاليا فنزل في دير الآباء الحلبيين الموارنة ثم في دير مار اشعيا للرهبان الأنطونيين؛ وفي تلك المدة كان يتردّد على الكلّية الغريغورية ويراجع الحقوق الكنسية.

وفي سنة ١٩١٢ عاد الى جزين وانصرف الى خدمة النفوس ومساعدة القريب والعطف على الضعيف والكتابة في مختلف الحقول ، ودرس حالة لبنان تمهيداً لإنشاء مشاريع عمرانية إلاّ أن الحالة الدولية التي اضطربت آنذاك لم تترك له مجالا لتنفيذ مشاريعه.

ولمّا نشبت الحرب الكونيّة (١٩١٤ــ١٩١٨) سافر الى باريس وتطوّع في مؤسّسة الصليب الأحمر الفرنسي ؛ فبقي طوال مدة الحرب مرشداً روحياً لها ، فأسدى للانسانية المتألّمة أجلّ الخدمات ، وعاد الى وطنه لبنان سنة ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ فأقبل على الكتابة تأليفاً وترجمةً ، وعلى تحقيق بعض منجزات عمرانية ومشاريع وطنية، منها إنشاؤه فندق الشالوف في جزين تعزيزاً للسياحة التي كان يرى فيها أوسع الرزق للبنان.

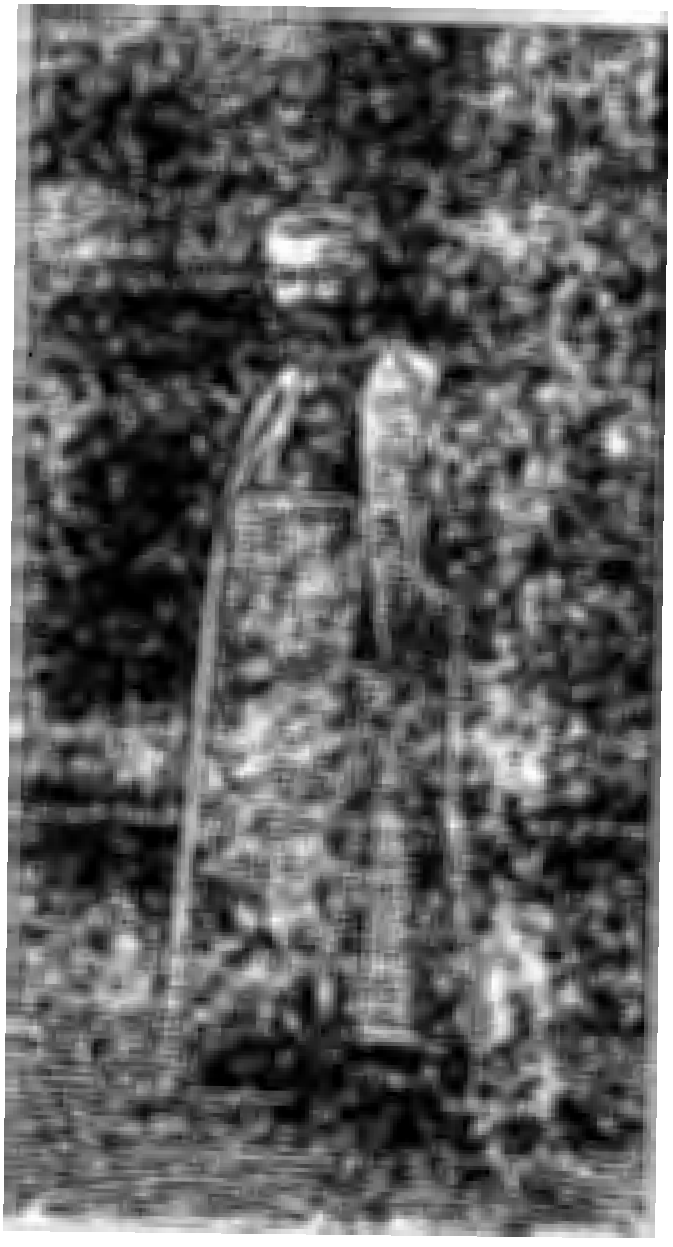

المونسنيور يوحنا رزق الجزيني

١٨٧٠ – ١٩٤٥

وفي ٢ ايار سنة ١٩٢٦ أنشأ في جزين جريدة « الشلال » غايتها الخاصة كانت تنشيط الاصطياف في ربوع لبنان فضلاً عمّا كان ينشر فيها من الأبحاث القيمة في الأدب والتاريخ والسياسة ، فعاشت زهاء سنتين ثم احتجبت عن الظهور .

آثاره الأدبية : ١ً ــ الجلاء المسيحي : ترجمه من الفرنسية الى العربية ونشره بالطبع سنة ١٩٠٠ بعيداً عن وطنه في المهجر وهذا المؤلف هو الجزء الاول من كتاب للمونسنيور ايجانيوس كوليه رئيس اساقفة رمس في فرنسا وقد ذكرته مجلة « المشرق » ٣ : ٤٧٥ .

٢ً ــ النفائس : كتاب يتضمن كلمات تاريخية وسياسية واجتماعية طبع في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٣ .

٣ً ــ تاريخ الحرب الكبرى : الأصل الفرنسي لفيكتور جيرو وقد أشفعه المترجم بملحق لتاريخ الحرب الكبرى في لبنان وقد سرد فيه الحوادث المؤلمة التي وقعت في لبنان واشترك فيه مع الترك الطغاة ، كثير من اعيان اللبنانيين ووجهائهم يوم احتكروا الأقوات وأجاعوا الشعب وأذلّوه ، طبع في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٤ .

وأنجز مخطوطة ضد الماسونية تقع في مايتي صفحة . ودوّن مجموعة من رسائله وتقاريره ومواعظه لا نعرف عن مصيرهما شيئاً بعد وفاته ، ونشر مقالات كثيرة في مواضيع مختلفة على صفحات الجرائد والمجلّات .

اللغات التي كان يجيدها : كان رحمه الله يجيد من اللغات : العربية والفرنسية والأسبانية واللاتينية والايطالية ، وكان لإلمامه باللغات الأثر البعيد في تطوّر تفكيره ، واشراق نفسه ، فكان حديثه عن الشعوب التي أجاد لغاتها ، حديث العالم الخبير بتطوّر مدنيّتها وثقافتها ونبضة شعوبها وعاداتها وقوانينها .

وطنيته : كان وطنياً حميماً يتغنّى بمجد لبنان ، ويدعو الى المحافظة على استقلاله ورفع كلمته والتمسّك بأخلاق قومه وعاداتهم الحميدة ، يلتهب غيرة على إنشاء المشاريع العمرانية ، وتعزيز الثقافة ونشر العلم في أرجاء لبنان حتى يظلّ موطناً للفكر والرقيّ والإشعاع ، كما كان وفياً مخلصاً لرجال الدين وأرباب الفضيلة والعلم ، وكان بينه وبين الطيّب الذكر المرحوم الأباتي لويس عيد الأنطوني البعبداتي ، صلات ودّ وصداقة ، وقد وصفه بعد مماته بقوله :

« كان مملوءاً غيرة وشهامة ، ومندفعاً بكل ما يعود على الطائفة بالخير ،

ولم يقدّروه قدره إلاّ بعد وفاته ، عملاً بالآية القائلة : الصدّيق يعيش مهاناً . ويموت مكرّماً ، ويظلّ قبره ممجّداً » .

وكان جسوراً مهيباً ، وقوراً ، خفيف الظلّ ، عفيفاً ، متواضعاً ، أنيس المجلس ، عذب الحديث ، وكان يحذّر الحاكمين من ارتكاب المظالم والعناية بأمور لبنان وتعيين موارده وضبط ادارته ويدعوهم الى العطف على الرعيّة والسهر على راحتها ، والعناية بشؤونها وتخفيض الضرائب ، برسائل تنطوي على الحكمة وسداد الرأي ، ومن تلك الرسائل التي عثرنا عليها ، رسالتان : الاولى الى الكونت دي مارتيل المفوض السامي للدولة المنتدبة وقتذاك ، وقد عدّد له فيها أعمال كل من أسلافه ، وناشده أن يوجد الحلول التي توافق كيان لبنان وتأمين رفاهية شعبه وتصغير هيكل الحكومة ، والرسالة الثانية الى الشيخ بشاره الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية يطلب منه ان ترصد وزارة الصحة والاسعاف العام في ميزانيتها اعتماداً لستّة أسرّة مجانية لفقراء قضاء جزين ، وممّا جاء في هذه الرسالة قوله :

« ان الكاهن الذي لا يهتم بفقراء رعيّته ، هو بئس الكاهن ، ومثله الحاكم ، ان الحكومة الانكليزية في فلسطين قد جنّفت عشرات الكيلومترات وأنشأت عشرات المصحّات والمستشفيات محافظة على الصحة العامة في بلد كان مقبرةً لساكنيه ، أمّا الآن فبفضل هذا التدبير أضحى بلداً صحّياً . فاعطف على الفقراء تكسب قلوب الجميع ، لأن الإكثار من المؤسّسات الصحّية في بلد ، هو أكبر دليل على مدنيّته ورقيّه وأعظم محبّب للشعب بحكومته » .

وبعد أن جاهد جهاداً حسناً في كرم الرب ، أصيب برجفة عصبية خطيرة لازمته حتى وفاته . فلم تفتر له عزيمة ، ولا فارقه حبّه للكتابة ولنفع الناس ، بل كان يستعين على الكتابة بأنسبائه وأخصائه ، ويملي عليهم رسائله ، فممّن أملى عليهم المؤرخ الأب يوسف أبي نادر الأنطوني الجزّيني الذي عُني بأموره الروحية في آخر أيامه ، فوقف على أدوار حياته ، وتعرّف عن كثب ، الى روحه المسيحية وأخلاقه العالية .

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في داره في جزين يوم الثلاثاء ١٩ حزيران سنة ١٩٤٥ فذهب مأسوفاً على مبرّاته وأخلاقه وعلمه وجهاده ، ودُفن باكرام في مدفن كنيسة مارى يوسف في جزين التي هي وقف أسرته تغمّده الله برحمته ورضوانه .

بكاسين جرجي ابرهيم نصر